مدرسة الحوليات والتاريخ الجديد

غيرت مدرسة الحوليات تصور المؤرخين من البحث في الأحداث إلى البحث في البنيات، ومن البحث في التاريخ السياسي والعسكري إلى البحث في التاريخ الاجتماعي والاقتصادي والذهنيات، ثم إن هذه المدرسة استطاعت على مدى ثمانية عقود أن تتكيف معرفيا مع المنعطفات الابستيمولوجية التي عرفتها العلوم الاجتماعية خاصة في القرن العشرين، وذلك بالقدرة على صياغة المفاهيم وإعادة صياغتها وتحديدها وإيجاد مخارج للأزمات التي عرفتها الكتابة التاريخية، كما سعت إلى إنتاج أبحاث ودراسات متميزة بتوظيف مفاهيم وأدوات مستعارة من علم الاجتماع، وعلم الاقتصاد، وعلم السياسة. وبالتالي تأثر التاريخ بالمناهج والنظريات المتداولة في شتى العلوم، وكانت الغاية في الانسلاخ من الكتابة التاريخية التقليدية للتاريخ ودراسة الإنسان والمجتمع بكل أبعادهما، وفي كل محطاتهما التاريخية دراسة علمية تجريبية وموضوعية.

1- نشأة مدرسة الحوليات الفرنسية:

كانت الكتابة التاريخية في القرن التاسع عشر تعتمد على مرتكزات وأسس المدرسة المنهجية الوضعانية التي تقوم على فكرة أساسية مفادها " لا تاريخ بدون وثيقة " ذات الطابع السياسي والدبلوماسي والعسكري على اعتبار أن القرن التاسع عشر كان قرن الوثائق بامتياز، كما طغى أسلوب الرواية والسرد السطحي للأحداث دون تمحيص ولا تدقيق.

شكلت أفكار كل من المؤرخ جول ميشلي والفيلسوف هنري بير رافد أساسيا من الروافد التي غذت مدرسة الحوليات منذ النصف الأول من القرن التاسع عشر، بالإضافة إلى تأثير السوسيولوجيا الدوركايمية محددا في نشأة هذه المدرسة، حيث أثروا في مدرسة الحوليات بشكل أساسي باعتراف مؤسسي المجلة الأوائل وهما بلوك وفيفر فالمدرسة الوركايمية في علم الاجتماع التي جعلت غاية لها دراسة المجتمع، إن دوركايم سعى أن يكون علم الاجتماع علما محوريا والمؤرخ يكون مجرد جامع للرحيق الذي يصنع منه عالم الاجتماع عسلا، وهذا ما سعت إليه الحوليات كذلك، يقول مارك بلوك معترفا بمديونيته لدوركايم " لقد علمنا دوركايم أن نحلل بمزيد من العمق وأن نعصر المسائل عصرا ".

كما تأثرت مدرسة الحوليات ببعض المدارس الجغرافية، على رأسهم المدرسة الجغرافية الفيدالية نسبة لفيدال دولابلاش هذه المدرسة التي كانت تقترح مقاربة شمولية لتحليل الواقع الاجتماعي القائم على أساس علاقة جدلية مزدوجة بين الزمن والمجال وبين الجماعات البشرية والوسط الطبيعي.

لقد برزت مدرسة الحوليات في ظل مناخ دولي يتسم بتفاقم الأزمة الاقتصادية التي ضربت الدول الرأسمالية، وفي وقت تعيش فيه الدول الأوروبية أوضاع سيئة بعد الخسائر الجسيمة التي تكبدتها في الحرب العالمية الأولى.

ان مدرسة الحوليات ظهرت سنة 1929 بتأسيس المجلة التاريخية الاقتصادية الاجتماعية التي قام بتأسيسها أستاذان شابان هما لوسيان فيفر ومارك بلوخ حيث قرر الرجلان أن ينفخا في دراسة التاريخ روحا قوميا جديدة ، بحيث ستأخذ الكتابة التاريخية أبعادا جديدة سوسيولوجية ولسانية وجغرافية وديموغرافية, وتحول التاريخ إلى دراسة كل ما له علاقة بالإنسان، واهتم المؤرخ بالمدة الزمنية الطويلة عكس المدرسة المنهجية. وتقوم على الانفتاح على كل الحقول والميادين لكن بتحفظ ومع إبقاء كل علم على خصوصيته. وبذلك أصبح التاريخ يدرس المجتمع بدل الفرد. كما مال المؤرخ إلى دراسة تاريخ البنى الاقتصادية والاجتماعية والثقافية بدل التاريخ السياسي الدبلوماسي والوثائق المكتوبة والمعاهدات.

2- تعريف مدرسة الحوليات الفرنسية:

تشكلت مدرسة الحوليات في فترة الأزمة الاقتصادية العالمية عام 1929م، كما نشأت مجلة حوليات التاريخ الاقتصادي والاجتماعي لمحاولة إيجاد حلول اقتصادية للمجتمعات الأوروبية في ظل الأزمة الاقتصادية.

لقد تم رفض الحدث والفرد والسرد من طرف مدرسة الحوليات التي انتقلت إلى استثمار مواضيع جديدة لخصها بول ريكو في عبارة **الواقعة الاجتماعية الشاملة** مستعيرا إياها من السوسيولوجي مارسيل مور، فموضوع ماهو اجتماعي أصبح محددا لهوية مدرسة الحوليات ومفضلا لديها.

3- مبادئ مدرسة الحوليات الفرنسية:

جاءت مدرسة الحوليات بجملة من الأفكار والتصورات الجديدة فيما يتعلق بالكتابة التاريخية، أو التعامل مع الوثيقة التي أصبح مفهومها يشمل كل أنواع الوثائق، ويمكن تلخيص هذه الأفكار في الآتي:

– مدرسة الحوليات اهتمت بالزمن الراهن والقضايا الجديدة حيث أن معظم أعداد مجلة الحوليات ركزت اهتمامها حول القضايا المعاصرة كالأزمة الاقتصادية والأوضاع الاجتماعية، وظهور النازية وغيرها من المواضيع ذات الطبيعة الاجتماعية والاقتصادية في أغلب الأحيان.

– الاستعانة بمجموعة من الأساليب والطرق المستعارة أساسا من العلوم الطبيعية كالمفاهيم الكمية والتقنيات السيكولوجية وأساليب التحليل الحسابي وطرق الإحصاء والعينات.

– الابتعاد عن السرد السطحي والتركيز على الأبطال والشخصيات والأساطير والخرافات إلى الاهتمام بالمجتمع بكل مكوناته بما فيهم الطبقات الضعيفة والمهمشة والطبقة العاملة والكادحة.

– اتساع مجال مفهوم الوثيقة إذ أصبحت تشمل كل مخلفات الإنسان من وثائق وكتب ورسائل والاعتماد على الكشوفات الأثرية، وكل ما يساعد المؤرخ على استجلاء الحقيقة.

– ظهور تخصصات وحقول معرفية جديدة تفرعت عن التاريخ حيث ظهر التاريخ الإشكالي وتاريخ العقليات والذهنيات والعديد من الميادين الأخرى في علم التاريخ.

– الانفتاح عن كل الميادين والعلوم والتخصصات التي يمكن أن تفيد المؤرخ، فالتاريخ هو حصيلة كل التواريخ الممكنة، جميع المهن وجميع وجهات النظر بالأمس واليوم وغدا.

4– رواد مدرسة الحوليات الفرنسية:

4–1 مارك بلوك (1886–1944)

ينحدر مارك بلوك من أسرة يهودية وقد ولد في ليون عام 1886، وكان أبوه أستاذا للتاريخ الروماني حيث درس إبنه مارك إلى أن حصل على شهادة في التاريخ عام 1908، وبعدها بلوك قضى سنتين في ألمانيا للإطلاع على الدراسات التاريخية، ثم تعرف إلى بعض تلاميذ إميل دوركايم فانفتح أفقه الثقافي وتحددت معالم منهجه في التاريخ.

عمل مارك بلوك أستاذا للتاريخ في بعض الثانويات الفرنسية، وناقش أطروحة جامعية عن منطقة باريس عام 1913، وبعد أن شارك في الحرب العالمية الأولى ومنح عدة أوسمة عاد إلى مجال البحث وأعد أطروحة جامعية أخرى عن سكان الريف بمنطقة جزيرة فرنسا عام 1920.

– يمكن إجمال أهم تصورات مارك بلوك حول مفهوم التاريخ في النقاط الآتية:

- نظر إلى التاريخ على أنه دراسة المجتمع بوصفه وحدات متحركة تتجلى في حالة تبدل مستمر وثابت، فالجديد يبقى نسبيا في هذه الحركة لأنه جزء من حركة التاريخ التي تدرس نشاط البشر وتعالج المجتمع في حركيته وتكامله، وليس بصفته وحدات جامدة.
- نظر إلى التاريخ أيضا على أنه الصورة المتكاملة للنشاط الإنساني، وهذا يستوجب دراسة عينات من هذا النشاط بالرجوع إلى الوسط الطبيعي والثقافي والميول النفسية.
- يرى بأن التاريخ هو علم الزمان أو علم الإنسان في الزمان، فالزمن أساسي في أي مقاربة تاريخية، لأنه الإطار الذي يتحقق فيه التطور التاريخي.
- كما يرى بأن التاريخ هو علم الإنسان الاجتماعي الذي يسمح بتكوين صورة متكاملة للنشاط البشري، فمصير الإنسان لا يمكن أن يحدده إلا نشاط الإنسان نفسه، وهي حصيلة تراكم الانجازات السابقة في فترات محددة شاركت في صياغتها عوامل عديدة تضافرت في تكوين بنى المجتمع.
- ارتكز في دراسته للتاريخ على الوثائق بمفهومها الواسع من شهادات ووثائق وآثار، ولكن الاستفادة من هذه الشهادات والوثائق مرهون بعمليتي التحليل ثم التركيب.
- ركز على ملاحظة التحولات الاقتصادية والتشريعية والإنسانية التي تعرفها المجتمعات في إطار متكامل ومتجانس.

4-2 لوسيان فيفر (1878-1956)

ولد لوسيان فيفر بمدينة نانسي شرق فرنسا، كان أبوه يعمل أستاذا بالتعليم الثانوي، وعرف بميوله الديمقراطية والاشتراكية دون أن يؤثر ذلك في منهجه العلمي.

درس في مدرسة المعلمين، وبعد حصوله على الشهادة انخرط في سلك التعليم الثانوي، ثم شغل منصب أستاذا بجامعة ديجون مدة ثلاث سنوات، ثم التحق بالجيش خلال الحرب العالمية الأولى، وتقلد عدة أوسمة، وبعد الحرب التحق بجامعة ستراسبورغ التي اسند له بها كرسي التاريخ الحديث (1919).

– أعطى لوسيان فيفر مع مارك بلوك شرعية جديدة للتاريخ في المجال الواسع للعلوم الإنسانية والاجتماعية، فعمل على إيجاد نقاط التقاطع وخيوط التواصل بين هذه العلوم والتاريخ.

– وبين لوسيان في كتابه **معارك من أجل التاريخ** أن مستقبل التاريخ بوصفه علما يرتبط بانفتاحه على العلوم الإنسانية والاجتماعية وخروجه من قوقعة التعامل مع الوثيقة، فانتقد المدرسة الوضعية الملتزمة بالنقد والمقيدة بالوثائق، والتي رأى بأنها ترسم لوحات للأحداث لا فائدة منها، وتعطي نظرة سطحية عن الماضي بينما يتطلب التاريخ الحقيقي منظورا طموحا وشاملا للمعرفة التاريخية.

– كما تناول فيفر التاريخ تناولا كليا بمختلف عوامله وجوانبه نظرا إلى تفاعل تلك العوامل وتداخلها، فأشار إلى ضرورة تحليل العوامل الاقتصادية والطبيعية والفكرية في بنية المجتمع، وعدم حصر جهود المؤرخ في الوثيقة فقط.